دور اللغة والدين في الحفاظ على ماهية المجتمع
دراسة في الفكر الإصلاحي لابن باديس (1889، 1940م)

The role of language and religion in protecting the identity of society. Study in the reformist thought of ibn badis (1889, 1940)

خالد محجوب [1]،

[1] كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر 1 (الجزائر)، k.mahdjoub@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2019/09/04 تاريخ القبول:2021/01/15 تاريخ النشر: مارس/2021

الملخص:

تأخذ كل من اللغة والدين دورا مهما وخطيرا في تكوين المجتمع والحفاظ على استقرار هويته وكينونته، ومنحه قوة المدافعة أمام إرادات الغزو ومحاولات الهيمنة، وفي القرن التاسع عشر الميلادي تجلت هذه المحاولات في الموقف العدائي الذي أبداه الاستعمار الفرنسي تجاه اللغة العربية والإسلام في الجزائر، سعيا منه إلى تحقيق جملة من الأهداف الاستراتيجية ، وعلى رأسها دوام السيطرة على المقدرات البشرية والمادية للشعب الجزائري، ومن مظاهر العناية الإلهية بهذا البلد أن قيض له رجالا فقهوا مفهوم الأمة ومقومات كينونتها وبذلوا الجهود في الإصلاح الديني واللغوي في الجزائر، وعلى رأس هؤلاء الرجال الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي كانت له جهود مشكورة في هذا المجال، سعى هذا البحث إلى بيانها في إطار جغرافيتها التاريخية وراهنيتها اليوم، لأن التاريخ كثيرا ما يعيد نفسه، والاستفادة من عِبَرِه ومواعظه ضرورة مجتمعية أكثر من يحمل عبئها المثقفون في المجتمع.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الدين، ابن باديس، الهوية، الاستعمار.

Abstract:

Language and religion play an important role in the Structure of society, the Keep of its identity and stability, and give society the strength to defend against intellectual invasion.

In the nineteenth century, French colonialism had shown a hostile attitude towards Arabic and Islam in Algeria, seeking to achieve a number of strategic objectives, foremost among which was the continuing domination of the Algerian people.

Abdelhamid Ben Badisis a man who has had commendable efforts in religious and linguistic education in Algeria.

Efforts that would be about this research in the context of its geography, historical and linked to the reality of the nation today.

Key words: Language, religion , IbnBadis , identity, colonialism..

المقدمة:

يهتم القرآن الكريم بدور اللغة والدين في تكوين مجتمع الحضارة كما يتصوره الإسلام، ويتجلى هذا الاهتمام في حديثه عن ضرورة تناسب الخطاب الإلهي مع لسان الفهم لدى المكلفين بفهم هذا الخطاب، ولذلك نقرأ قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُم } [1] ففي هذه الآية دليل ناطق على اعتبار القرآن الكريم للعوائد البشرية وعدم إهمالها، خاصة إذا كانت هذه العوائد من أسباب الاجتماع والاستقرار، كاللغة والأعراف الحسنة والأخلاق الكريمة والقيم الإنسانية المشتركة، ويأتي اهتمام القرآن الكريم بهذه القيم في سياق منظومته المتكاملة القائمة على محوري تحصيل المفقود وترشيد الموجود وتكميله، وعبر المسار الذي اختطته رسالة الإسلام لنفسها عبر الفتوحات الإسلامية في ربوع الأرض لم تشهد هذه الرسالة أي صراع أو مشكلة بين لغة الفاتحين ولغة الأقوام الذين اعتنقوا الإسلام، وهذا من أكبر المؤشرات على اعتبار الإسلام للعوائد الإنسانية وترشيدها.

وإذا ما جئنا إلى العصر الحديث وأردنا أن نعطي نموذجا معاكسا لهذه الحقيقة ألفيناه متجليا في سعي الاستعمار الفرنسي لضرب الأمة الجزائرية ومحو اسمها من سجل التاريخ من خلال ضربها في مقومات وجودها " اللغة والدين "، ويتجلى ذلك في الجهود الكبيرة التي بذلها المستدمر الفرنسي والتي جاوزت القرن من الزمن، من أجل مسخ الشعب الجزائري حضاريا وجعله تابعا لفرنسا خاضعا لإملاءاتها وجبروتها، ولكن في اللحظة التي أوشك فيها الشعب الجزائري على السقوط الحضاري أمام الهجمة الشرسة للمستدمر الفرنسي... ظهر المصلح الجزائري عبد الحميد بن باديسلي عيد للأمة الجزائرية ثقتها بنفسها ويبعث فيها روح المقاومة من جديد، من خلال جهوده الإصلاحية الموجهة نحو اللغة العربية والدين الإسلامي عقيدة وشريعة، فأسس المدارس القرآنية والكتاتيب، وأنشأ المجلات العلمية الهادفة، وأقام المؤتمرات وجمع لها مختلف أطياف المجتمع لرأب الصدع ولم الشمل، كما أسس جمعية تعنى بكل هذه الشؤون سماها " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وتفصيل هذه الجهود في سياقها وسباقها يمثل إجابة عن إشكالية هذا البحث التي انتضدت في شكل قضيتين متكاملتين معرفيا ومتعاقبتين زمنيا، تتعلق الأولى بالتاريخ، وتنظر الثانية في الحاضر، إذ بالرغم من أن قضية الهوية الدينية واللغوية للشعب الجزائري قد فصل فيها الدستور الجزائري[2]، إلا أنه من واجب الباحثين الجزائريين التذكير الدائم بهذين المقومين الأساسيين، بسبب تحديات الراهن المحلي والدولي التي تعبر بوضوح تام عن مدى الخطر الداهم الذي يهدد استقرار المجتمع في هويته الدينية واللغوية، وعليه فقد جاء هذا البحث للكشف عن علاقة اللغة والدين بماهية المجتمع وكينونته الحضارية من خلال النموذج الذي اخترناه لهذه الدراسة، وقد اقتضت الإشكالية السابقة تقسيم البحث إلى خمسة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: دور اللغة والدين في تكوين المجتمع.
المبحث الثاني: مفهوم الأمة ومقومات كينونتها من وجهة نظر الجمعية.

المبحث الثالث: موقف الاستعمار الفرنسي من اللغة العربية والإسلام.

المبحث الرابع: أهداف ضرب اللغة والدين في المجتمع الجزائري. المبحث الخامس: جهود ابن باديس في الإصلاح الديني واللغوي في الجزائر.

وفي الأخير جاءت الخاتمة لحوصلة أهم النتائج التي خرج بها البحث، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول: دور اللغة والدين في تكوين المجتمع

يشكل تاريخ أية أمة جزءا أساسيا منها، ترجع إليه لتعرف أصولها وتستلهم منه العبر وتؤسس لمستقبل الأجيال المنتمية إليها، حتى تكون مستقلة في شخصيتها وغير تابعة لأي جهة أو قوة إقليمية كانت أو دولية، بل تتعامل مع بقية الأمم تعامل الند للند في إطار الاحترام المتبادل.

وأعظم الروابط التي تربط الأجيال بتاريخها، وتبعث الحياة في شعور الأجيال ووجدانها رابطتي اللغة والدين، لأنهما تشكلان نظاما تواصليا مشتركا ومتبادلا، ينعكس على الأفكار والأفعال والمشاعر والأحاسيس، ويعطي للجماعة التي تستشعر هذا التواصل قوة الانتماء واستشعار الكينونة الحضارية والهوية الثقافية المستقلة، ولهذا يقول ابن باديس: " علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود. ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد، إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة. إنها وحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين، أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار، وما في النفس من آلام وآمال. إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين، وخدم العلم، وخدم الإنسان، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا."[3]

لقد تفطن ابن باديس منذ وقت مبكر إلى خطورة تغييب البعد اللغوي والديني من واقع المجتمع، لأن هذا التغييب سيؤدي إلى سهولة السيطرة عليه، لأنه سيصبح مجتمعا بلا هوية، منبت الصلة عن جذوره وقواعده الذاتية، وهذا الذي خطط له المستشرقون الذين فتحوا الطريق أمام الاستعمار الحديث يقول المستشرق الفرنسي ألفرد لو شاتولييه (alfred le chatelier) :« ولا ينبغي لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامي أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى، إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية إذ الضعف التدريجي بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الضعف من الانتقاص والاضمحلال الملازم له، سوف يقضي بعد انتشاره في كل الجهات– إلى انحلال الروح الدينية لا إلى نشأتها بشكل آخر »[4]

ولقد اكتشف الإمام ابن باديس خيوط مؤامرتهم الدنيئة، فهتك أستارهم وكشف عن وجههم القبيح حين قال: " لكل أمة شعار إذا تركته طُمع فيها واستُضعف جانبها وربما صارت بعد مدمجة في غيرها. وقد سعى

أناس منذ عهد بعيد في أن يضعفوا ما يقوي أمر الإسلام عموماً والعرب خصوصاً فنجحوا بعض النجاح، فطمعوا في أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من إضعاف أمر اللغة العربية والسعي في تبديل خطها والتزهيد في الكتب التي كتبت بها، جعلوا ذلك دأبهم وديدنهم حتى أثروا في كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الأمم فكان ما كان مما هو معروف"[5]

نعم إن استقلالية التاريخ بمكوناته الماهوية لغة وديانة وأعرافا يعطي وجودا مستقلا وحقيقيا للأمة التي تنتمي إليه عن وعي، ويمنحها المناعة اللازمة والقوة الفاعلة على مقاومة إرادات الهيمنة والتذويب، ولذلك فالأمة التي تتمسك بتاريخها ولو كان مزيفا أمة مرهوبة الجانب عزيزة المطلب من الأعداء، والأمة التي تتبرأ من تاريخها وتسبه ولو كان أمجادا حقيقية، فهي أمة ضعيفة سهلة المضغ والبلع من قبل قوى الهيمنة الاستعمارية.

المبحث الثاني: مفهوم الأمة ومقومات كينونتها من وجهة نظر الجمعية

تأخذ كل من اللغة العربية والدين الإسلامي الحنيف موقعا هاما في الجغرافية الحضارية للأمة، فهما يشكلان سلسلة جبلية راسية تحفظ الأمة من زلازل الشبهات ومحاولات الاختراق الحضاري، وتجعل الانفتاح على لغات الآخرين وأديانهم انفتاحا واعيا، محكوما بأدبيات التواصل الحضاري وقوانين العيش الإنساني المشترك، وقد دعا العلامة ابن باديس إلى الاهتمام بهما بوصفهما مقومين أساسيين من مقومات الكينونة الحضارية للأمة الجزائرية، وأي إهمال تمارسه الأمة في حقهما يعد إهمالا لواجب يستحق صاحبه العقاب، ولهذا يقول ابن باديس: " اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثّم فهي لغة المسلمين الدينيةُ الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوبَ تعلمها، فكيف إذا اجتمعا، حق من حيث أنها لُغةُ دين الأمة، بحكم أنّ الأمة مسلمة، وحق من حيث إنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس؛ ففي المحافظة عليها محافظةٌ على جنسية ودين معًا، ومن هنا نشأ ما نراه من حرص متأصّل في هذه الأمة على تعلم العربية، وما نشهده من مطالبة أجماعية بحرّية تعليمها، وما نشاهده من قلق واضطراب في أوساط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللغة العربية، وما نراه من سخط عميق على القرارات والقوانين التي تعرقل تعليمها، وذلك كله لأنها مفتاُح الدين، أو جزءٌ من الدين."[6]

إذن لم تكن مهمة المحافظة على مكونات الهوية الجزائرية من لغة ودين وتاريخ، وإعادة بعثها في واقع المجتمع سهلة أمام تعنت الإدارة الفرنسية، ووضعها العراقيل والمعوقات أمام المحاولات الإصلاحية المبذولة من قبل العلامة ابن باديس ومن سار في ركابه من علماء الجزائر ومصلحيها، فما هو الموقف الذي أبداه الاستعمار الفرنسي إزاء لغة الجزائريين ودينهم، وما الوسائل التي اتخذها لضرب هاذين الركنيين الأساسيين في مكونات الهوية الحضارية للأمة الجزائرية؟

المبحث الثالث: موقف الاستعمار الفرنسي من اللغة العربية والإسلام

موقف الاستعمار الفرنسي من اللغة العربية والدين الإسلامي واضح من البداية، وهو موقف عدائي يتخذ من الحرب المادية والقانونية وسيلة للقضاء عليهما أو مسخهما في صورة تبعث على الاشمئزاز لتنفير الأجيال منهما وفصلها عنهما، ومن ثم يسهل على الاستعمار عملية الهيمنة الثقافية التي تساهم في استمرار الهيمنة العسكرية والتبعية الاقتصادية، ولقد عمل الاستدمار الفرنسي على سن القوانين الجائرة التي تحد من النشاط التعليمي للغة والدين، فمنشور ميشال الصادر سنة 1933 وقرارات ريني وقانون شوطان في 1938 وجميعها يقضي بإغلاق المساجد في وجوه العلماء، وبمنعهم من التنقل في البلاد للوعظ والإرشاد، وبمنع تأسيس المدارس وتعليم اللغة العربية[7].

وما قيل عن هذه القرارات والقوانين الجائرة يقال أيضا عن قرار الثامن مارس المشؤوم الذي نص على منع إعطاء رخص التعليم لمن يطلبها من العلماء الجزائريين، وغلق المدارس القرآنية ومكاتب التعليم المدني التي كان يشرف عليها الجزائريون من أبناء الجمعية وغيرها، وقد تحدث عن هذا القرار الإمام ابن باديس ولوعة الأسى تملأ قلبه حزنا على واقع اللغة العربية والدين الإسلامي المهمشان من قبل تلك القوانين الجائرة فقال: " لما انبعثت الأمة في نهضتها الدينية العلمية بعث لها هذا القرار المشؤوم وأخذ في تطبيقه بكل شدة وصرامة، فلم يبق أحد إلا فهم القصد من بعث هذا القرار المشؤوم في هذه الظروف وما سبقها وما لحقها وما زال مستمرا إلى اليوم- إلا وهو معاكسة تعليم الدين ولغة الدين... هكذا فهمت الأمة كلها من نفسها، والحكومة نفسها هي التي أفهمتها بأعمالها والأمة هي التي قالت وما زالت تقول: (إن قرار 8 مارس المشؤوم ضربة قاضية على تعلم الإسلام ولغة الإسلام)"[8]

الواقع أن هذا الموقف العدائي الذي أبداه الاستدمار الفرنسي تجاه لغة الجزائريين ودينهم لم ينحصر في الاستعمار الفرنسي فحسب، بل تبناه بعض الجزائريين الذين خانوا قضيتهم وارتموا في أحضان المستدمر الفرنسي يبتغون عنده العزة والمنعة، وهؤلاء الخونة لم يتوانوا لحظة في مناصبة الإمام ابن باديس العداء هو وجمعيته، ومحاولة إيذائه والحد من نشاطه، ومواقف الشيخ مع هؤلاء كثيرة، بلغ بعضها درجة محاولة قتله كما فعل أحد أتباع الطريقة العلوية سنة 1926. ومن المواقف التي ظهر فيها عداء هؤلاء للغة والدين ما أبداه النائب الخائن ابن غراب من حقد دفين تجاه المدارس التي بناها ابن باديس لحماية لغة الجزائريين ودينهم " لو كان هذا الرجل وجه على الجمعية أضعاف ما وجه عليها من تهم واعتدى عليها بأضعاف ما اعتدى به عليها من سب وإذاية من عند نفسه، وفي مجلس من أي مجالس مثله، لكان محققا من الجمعية أنها لا تسمعه، ولو سمعته لكان حقا عليها أن لا تقول له إلا (سلاما) .. ولكن الرجل كان- عن رضى واختيار- آلة هدم وتخريب، وبوق شر وفساد، في مجلس رسمي قد استدعى له الناس ليقولوا ويحتج بأقوالهم. فلهذا تنازلت الجمعية لرد افتراءات النائب واعتداءاته."[9]

كما رد عليه مزاعمه الكاذبة التي يدعي فيها أن فرنسا الاستدمارية ساعدت الجمعية في وظيفتها التعليمية والتربوية فقال ردا عليه: "وزعم أن الحكومة ساعدت الجمعية أولاً ورخصت لها. والحكومة ما عرفت منها الجمعية مساعدة خاصة لا أولاً ولا أخيراً، وأي مساعدة شاهدناها من الحكومة وقد أقرت قرار بريفي الجزائر الذي يمنع رجال الجمعية من وعلى العامة وإرشادهم في المساجد، وأي مساعدة والحكومة قد أغلقت مكاتب وامتنعت من الترخيص في مكاتب أخرى لمجرد انتماء المعلمين أو الطالبين للتعليم للجمعية. فمن الأولى مدرسة سيق ومدرسة بلعباس ومدرسة قمار، ومن الثانية مدرسة القنطرة. هذا هو الواقع مع الأسف الشديد"[10]

ولكن هناك من الفرنسيين أنفسهم من أنصف الشعب الجزائري في مقاومته إرادة الهيمنة الفرنسية على عقول وقلوب الجزائريين ومنهم الفيلسوف الوجودي سارتر SartreJean-Paul الذي صرح على لسان إخوانه الاستعماريين بالقول: " ولكننا على كل حال، أردنا أن نجعل من إخواننا المسلمين شعبا من الأميين"[11] كما بين من ناحية ثانية أن أية محاولة للنهضة لن تحدث إلا إذا أخذت الأمة مقومات النهضة من اللغة والدين والأعراف بعين الاعتبار، وهذا الذي عملت فرنسا الاستدمارية على منعه" ولما كان من مقومات القومية في أروبا وحدة اللغة، فقد حرم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات"[12].

ولم تكتف الإدارة الفرنسية بسن القوانين الجائرة بل قامت بمحاولة مصادرة دين الجزائريين بتعيين عملائها من المتدينين المزيفين أصحاب الخرافة والدجل كناطقين رسميين باسم الإسلام من أجل إثارة الفتنة الدينية بين الجزائريين وتفتيت صفهم وإضعاف شوكتهم، وهو ما حدا بسارتر إلى القول: " إن الإدارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تعمل على تفتيتهم وانتزاعهم من جوهرهم العربي، وهي تختار رجال الدين الإسلامي من بين عملائها، وقد احتضنت أحط أنواع الخرافات التي تؤدي إلى سيادة التفرقة"[13].

ومن الفرنسيين الذين أبدوا مواقف مشرفة مع الجمعية الوالي العام الفرنسي موريس فيوليت Maurice Viollette الذي زاره ابن باديس في مكتبه ليشتكي له من سوء معاملة الإدارة الفرنسية في الجزائر له ولرجال الجمعية حيث ذكر الإمام ابن باديس أنه أول من قاموا بزيارته من المسؤولين، ولما أجاب عن المطالب قال لهم: قد أكون نسيت شيئا فذكره الأستاذ العمودي بمطلب حرية التعليم العربي فأخذ في مدح العربية وأنها لغة تاريخية ولغة علم فمن المحال أن أحدا يبغضها أو يقاومها فقلت له: لكن مع الأسف إن اللغة العربية محاربة بالفعل من الإدارة الجزائرية وأن المسلمين يشعرون من أجل ذلك بألم شديد. ونبهت بعض الإخوان إلى أن موريس فيوليت لما كان يتكلم على المطالب كان يتكلم بفصاحة واسترسال فلما أخذ في الكلام على العربية لم يكن كما كان. فوافقوني على ذلك وقد كانوا تنبهوا له مثلي. صحيح أن فيوليت يحب الخير للمسلمين ولكنه لا يحب لهم ما يعرقلهم عن الاندماج التدريجي، وليس كل ما يحبه لنا أحد عن حسن نية هو مما نحبه نحن لأنفسنا.

وقابلنا م فيوليت مرة ثانية- الشيوخ الثلاثة والدكتور ابن جلول والأستاذ القلعي- فوضَّحنا له مطالب المؤتمر في الحرية الدينية وحرية التعليم بالمساجد لكل عالم مسلم وتأسيس جمعيات دينية في كل ناحية باختيار أهلها وذكر له الأستاذ الإبراهيمي الظلم الواقع من الإدارة الجزائرية في هذه الناحية من حياة المسلمين، الظلم الذي لم يبق فيه من خفاء كما لم يبق عليه من صبر. فوعد بأنه سينظر في المسألة مع رئيس الوزراء."[14]

المبحث الرابع: أهداف ضرب اللغة والدين في المجتمع الجزائري

لقد سعى الاستدمار الفرنسي إلى تحقيق جملة من الأهداف من خلال توجيه ضرباته القاتلة نحو لغة الجزائريين ودينهم، ومن أهم تلك الأهداف الحقيرة ما يأتي:

1/ بعث الاستيلاب الحضاري في واقع الإنسان الجزائري، وضرب شخصية الشعب الجزائري في الصميم، والواقع أن فعلا كهذا لا يقوم به إنسان شريف سوي الفطرة يؤمن بالتعدد والاختلاف بين البشر، ولهذا وجدنا كثيرا من الفرنسيين أنفسهم رفضوا هذا التوجه نحو محو شخصية الشعب الجزائري، وبموقفهم هذا أنصفهم الإمام ابن باديس حين قال: " أعداء الأمة الجزائرية- وأعداء فرنسا أيضا- يجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قرارا وزاريا بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلهما وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها. علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضن بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل."[15]

2/ إضعاف قوة الاعتداد بالشخصية وروح المقاومة لدى الشعب الجزائري، لأن الذي لا يملك تاريخه ومقومات وجوده تضعف لديه روح المقاومة وتتلاشى رويدا رويدا، ويصبح فريسة سهلة بين مخالب من يريد السيطرة عليه وعلى ثرواته ومقدراته، لأنه يرتمي في أحضانه كما يرتمي الطفل الصغير في أحضان أمه طلبا للأمان والراحة، حتى ولو تلقى منها العقاب! ذلك أن الطفل ضعيف أمام أمه، يرى فيها القوة والأمان، ففي الوقت الذي تنهره ويفر منها، فإنه لا يفر إلا إليها، فيجد نفسه بين أحضانها خوفا منها وطلبا للأمان ويؤكد أحد المفكرين هذه الحقيقة بقوله:

«... وفي جدلية سوردل تقوم هذه العلاقة: العلاقة بين الأم والطفل فالأم تنهر طفلها، والطفل يلوذ بحضن الأم خوفا منها وطلبا للأمان، وهذه الجدلية تمحو نفسها بنفسها، وتصير عامل جذب منها وتبعية، وعندما يحس الشرقي أنه غثاء وهباء... وأنه لا يملك شيئا قط، يحس تلقائيا بالعار، ويتهم نفسه بأنه من عرق منحط، ومن أجل أن يدفع هذه التهمة عن نفسه يتشبه بالغربي ... ومن هنا فالتقليد ظاهرة نتجت عن جدلية سوردل في العلاقة بين الشرقي والغربي»[16]

يتضح لنا مما سبق أن الاستعمار الأوربي حاول إفراغ الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها، وفصلها عن تاريخها، وجعلها غريبة عن ثقافتها وبعيدة عن نفسها مستعملا في ذلك

الحيل العلمية الدقيقة، وعلم الاجتماع المعقد الذكي...كل هذا من أجل دخوله وسيطرته وإغارته وإيقاع الأمم في أسره[17] والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أخلى ذواتهم من أصالتها، أصبحوا يسعون جهدهم إلى التشبه به وتقليده، ونبذ كل ما يذكرهم بتاريخهم و أصولهم التي أصبحوا يرون فيها السبب في تخلفهم.

3/ يترتب على إضعاف روح الاعتداد بالذات لدى مجتمع ما من خلال ضرب مقومات هويته كاللغة والدين والأعراف المشتركة، سهولة استعماره والسيطرة عليه، وتحقيقا لهذا المعنى يقول الرافعي: " وما ذلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضا على الأمة المستعمرة ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاما ثلاثة في عمل واحد، أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنا مؤبدا، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوا ونسيانا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها فأمرهم من بعدها لأمره تبع"[18]

المبحث الخامس: جهود ابن باديس في الإصلاح الديني واللغوي في الجزائر

لقد تم تأسيس الجمعية في الظروف التاريخية المعروفة والتي زامنت مرور قرن من احتلال فرنسا للجزائر، ولذلك كان من اهتمامات الجمعية إعادة المكانة المرموقة للغة العربية والدين الإسلامي في واقع المجتمع الجزائري يقول الإبراهيمي: " إن جمعيتكم هذه أُسّست لغايتين شريفتين، لهما في قلب كل عربي مسلم بهذا الوطن مكانة لا تساويها مكانة، وهما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية.

فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله أن يُقام بتصحيح أركانه الأربعة: العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق، فكلّكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلّة، وأن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات... وأما إحياء مجد اللسان العربي فلأنه لسان هذا الدين والمترجم عن أسراره ومكنوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنه لسان محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - صفوة الله من خله، والمثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، ولأنه لسان تاريخ هذا الدين ومُجَلّي مواقع العبر منه، ولأنه قبل ذلك وبعد ذلك لسان أمة شغلت حيّزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريفها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنّها وآرائها في عالمي الكون والفساد. وكلّكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقوّمات الأخرى."[19]

ولقد بذل الإمام ابن باديس الغالي والنفيس من أجل القيام بشأن اللغة العربية حتى أنه كان يقتطع من قوت عياله ما يدعم به المدارس التي أسسها لهذا الغرض حتى قال فيه الشيخ البشير الإبراهيمي: " إن من الدين، نشر علم الدين وتثبيته، وإن من صميم الوطنية تعليم أبناء الوطن، وإن من أصول القومية، إحياء اللغة العربية، وإن المعهد الباديسي كفيل بهذه الثلاثة، وإنه- مع ذلك- لنموذج من صنعة، وخطوة

من ميدان، وعنوان من كتاب، ومرحلة من شقة، فاقطعوها بشجاعة وثبات، يسهل عليكم ما بعدها من الوثبات ....ها هو ذا قائد الحركة، ومرسل هذه الصيحة، يضرب لكم المثل مع ضعفه وإقلاله، فيقتطع من مرتبه الذي يقوت منه عياله خمسة آلاف من كل شهر لمدة سنة، ثم يجمعها فتصير ستين ألف فرنك، فيحتم عليه الواجب أن يقدمها دفعة واحدة، فيستقرضها من المخلوق، ويقرضها الخالق، ويضعها باسمه في (شيك) المعهد.[20]

لقد أخذت الجمعية على عاتقها أمانة الحفاظ على اللغة العربية من الهجمة الشيطانية الشرسة التي شنها الاستعمار الفرنسي عليها، وفي هذا المعنى ننقل شهادة الشيخ الإبراهيمي حول هذه المهمة إذ يقول: " وجمعية العلماء التي تعد أشرفَ أعمالها تعليَم العربية، قد أقامت خمسة عشر عامًا تطالب في غير ملل بحرية التعليم العربي الذي هو أساسُ التعليم الديني، وما زالت تصارع العوارض الحائلةَ، وهي عوارض القرارات الإدارية، والقوانين الموضوعة لخنق العربية وقتلها؛ وما زالت الجمعية تنكر تلك القرارات وتقول عنها في صراحة: إنها قراراتٌ جائرة أنتجتها ظروف خالية من الرحمة ومن الكياسة، وأملتها أفكار خالية من الحكمة والسداد، وبواعثُ من الغرض والهوى؛ يؤيد ذلك كله وحيٌ من شيطان الاستعمار المريد، فجاءت في مجموعها لا تستند على منطق ولا نظر سديد، وإنما تستند على القوة أولاً، وعلى الحيلة ثانيًا، وعلى العنصرية البغيضة ثالثًا."[21]

والواقع أن التحديات التي جابهت الجمعية في وظيفتها الخطيرة، لم تكن أمرا سهلا ولم تكن شيئا هينا، بل كانت تحديات كبيرة وكانت سهامها المسمومة تنطلق من كل جهة لتجهز على جهود الجمعية لتذهب أدراج الرياح ولا يكون لها أثر في واقع الأمة المثخنة بالجراح، تلقت كل تلك السهام فقط " لأنها أثبتت للعروبة حقها في هذا الوطن، وأثبتت للعربية حظها في ألسنة بنيه، وأثبتت للإسلام سلطانه على مهجهم وأرواحهم."[22]

وقد صرح رئيس تحرير مجلة القلم بجهود العلامة ابن باديس في الدفاع عن اللغة العربية فقال: " وصلنا عدد خاص من مجلة الشهاب الغراء التي تصدر في قسنطينة بالجزائر وقد زين العدد المذكور بصور طلبة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الحميد بن باديس وقد تصدر حضرته الصورة الأولى من تلك الصور فإذا بنا نرى جلالا ومهابة في وجه الشيخ ذي الأيادي البيضاء على العلم واللغة في تلك البلاد المنكودة الحظ التي لولا حضرة الشيخ وأمثاله لماتت اللغة العربية في الجزائر لا محالة."[23]

يتضح لنا من كل ما سبق أن جهود الإمام ابن باديس كانت منصبة بالأساس على تعليم اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقا، ولم تكن هذه الجهود ضربا من الارتجال اللاواعي، بل كانت محكومة بنظرة علمية واستشرافية ثاقبة، تعبر عن حضور ذهني وذكاء منقطع النظير لدى العلامة ابن باديس، الذي فهم وهو في ريعان شبابه أن المعركة مع المستعمر الفرنسي الغاشم هي معركة هوية بالدرجة الأولى، ولذلك فلا غرو أن وجدنا كثيرا من قادة الثورة التحريرية المظفرة وشهدائها هم من تلاميذ هذه الجمعية المباركة وشبابها.

الخاتمة:

حاولت خلال هذا البحث أن أبين أن أعظم الروابط التي تربط الأجيال بتاريخها، وتبعث الحياة في شعور الأجيال ووجدانها هما رابطتي اللغة والدين، وأن للغة والدين دور كبير في تكوين شخصية المجتمع ومنحه الخصوصية والتميز وتحفظه من التميع والاستيلاب وفقدان الهوية الحضارية، كما بينت جهود العلامة ابن باديس في إعادة الاعتبار لهاتين القيمتين في ظل التحديات الكبيرة التي فرضها المستدمر الفرنسي ، من أجل محو شخصية الشعب الجزائري وجعله تـابعا لفرنسا المسيحية..هذا وقد أسفر البحث عن جملة من النتائج نجملها في النقاط الآتية:

1- دعا ابن باديس الشعب الجزائري إلى معرفة تاريخه لأن من عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود، وبين أنه لا سبيل لتحقيق ذلك إلا من خلال معرفة اللغة والدين والتمسك بهما.

2- تفطن ابن باديس منذ وقت مبكر إلى خطورة تغييب البعد اللغوي والديني من واقع المجتمع، لأن هذا التغييب سيؤدي إلى سهولة السيطرة عليه، لأنه سيصبح مجتمعا بلا هوية، منبت الصلة بجذوره وقواعده الذاتية، كالشجرة التي لا جذور لها يسهل قلعها والبناء الذي لا أساس له يسهل هدمه.

3- دعا العلامة ابن باديس إلى الاهتمام باللغة العربية والإسلام بوصفهما مقومين أساسيين من مقومات الكينونة الحضارية للأمة الجزائرية، وأي إهمال تمارسه الأمة في حقهما يعد إهمالا لواجب يستحق صاحبه العقاب.

4- لم تكن مهمة المحافظة على مكونات الهوية الجزائرية من لغة ودين وتاريخ، وإعادة بعثها في واقع المجتمع سهلة أمام تعنت الإدارة الفرنسية، ووضعها العراقيل والمعوقات أمام المحاولات الإصلاحية المبذولة من قبل العلامة ابن باديس ومن سار في ركابه من علماء الجزائر ومصلحيها.

5- تميز موقف الاستعمار الفرنسي من اللغة العربية والدين الإسلامي بالعدائية الواضحة، حيث اتخذ من الحرب المادية والقانونية وسيلة للقضاء عليهما لتسهل عليه عملية الهيمنة الثقافية التي تساهم بدورها في استمرار الهيمنة العسكرية والتبعية الاقتصادية.

6- وجد الاستعمار في حربه على لغة الجزائريين ودينهم سندا له من بعض الجزائريين الذين خانوا قضيتهم وارتموا في أحضان المستدمر الفرنسي يبتغون عنده العزة والمنعة.

7- هناك من الفرنسيين أنفسهم من أنصف الشعب الجزائري في مقاومته إرادة الهيمنة الفرنسية على عقول وقلوب الجزائريين ومنهم الفيلسوف الوجودي جون بول سارتر والوالي العام موريس فيوليت.

8- كان من اهتمامات وأولويات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسسها ابن باديس سنة 1931م إعادة المكانة المرموقة للغة العربية والدين الإسلامي في واقع المجتمع الجزائري.

9- لقد بذل الإمام ابن باديس الغالي والنفيس من أجل القيام بشأن اللغة العربية، وتعليم الدين الإسلامي للناس، حتى أنه كان يقتطع من قوت عياله ما يدعم به المدارس التي أسسها لهذا الغرض.

10- لم تكن التحديات التي جابهت الجمعية في وظيفتها الخطيرة، أمرا سهلا ولم تكن شيئا هينا، بل كانت تحديات كبيرة وكانت السهام المسمومة تنطلق من كل جهة لتجهز على جهود الجمعية لتذهب أدراج الرياح.

الهوامش

1- إبراهيم الآية 4

2- ينظر: الجريدة الرسمية، العدد54، السنة السابعة والخمسون، 9/16/ 2020، ص7

3-الطالبي عمار ، آثَارُ اِبْنِ بَادِيسَ،الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية الطبعة: الأولى (عام 1388 هـ - 1968 ميلادية) ج3 ص265

4- لو شاتلييهألفرد، الغارة على العالم الإسلامي، ، ترجمة مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب(المطبعة السلفية ومكتبتها – القاهرة ط 1350 هـ) ص13

5- الطالبي عمار ، آثار ابن باديس، ج4 ص188

6- الإبراهيمي أحمد طالب ، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي، الناشر: دار الغرب الإسلامي. الطبعة: الأولى، 1997 ج3 ص48

7- الإبراهيمي أحمد طالب ، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد الَبشِير الإِبْرَاهِيمِي ج1 ص39. وانظر: مازن صلاح مطبقاني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ... دمشق دار القلم، بيروت، دار العلوم، 1988 - 193 - 224.

8- الطالبي عمار ،آثار ابن باديس، ج3 ص 262، 263

9- الطالبي عمار ،آثار ابن باديس، ج3 ص286

10- الطالبي عمار ،آثار ابن باديس، ج3 ص287

11- سارتر جون بول ، عارنا في الجزائر ، مكتبة نور دون تاريخ ص 18

12- سارتر، الموضع نفسه

13- سارتر، الموضع نفسه

14- الطالبي عمار، آثار ابن باديس، ج3 ص337

15-الطالبي عمار، آثار ابن باديس، ج3 ص243

16-شريعتي علي،العودة إلى الذات ، ترجمة : إبراهيم الدسوقي شتا (الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ط2 ، 1408 هـ) ص 42

17- ينظر: شريعتي علي ، العودة إلى الذات، ص9.

18- الرافعي مصطفى صادق ، وحي القلم، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان الطبعة الأولى 2005م ص 771، 772

19- الإبراهيمي أحمد طالب ، آثار الإبراهيمي، ج1 ص133، 134

20-الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي ج2 ص448

21-الإبراهيمي،آثار الإبراهيمي ج3 ص49

22-الإبراهيمي،آثار الإبراهيمي ج3 ص61

23-الإبراهيمي، آثار الإبراهيميج4 ص355